ليلة الوداع

ما كان لدى عبد الرحمن من وقت ينفقه، فقد كانت المدارس ستفتح في الغـد ولقـد تأخر حجزه حتى وجد مكانا في الطائرة التالية..

أمضينا ليلة قلقة في السهر والحديث، وأفرغنا حقيبة عبد الرحمن من محتوياتهـا.. كان فيها طقمان على مقاسي، اختارت أسماء واحدا وأخذت أنا الآخـر، واكسـسوارات مطابقة لهما، وكنزات صوفية مع بناطيل طويلة لجهاد ووسيم، أما كـريم فـان كنزتـه ضاقت عليه فاستردها عبد الرحمن وقال:

-سأبعث اليك ببديل عنها، فما خطر لبالي أنك سمنت هكذا بعد الزواج!

فرح كريم بعقدتي الرقبة اللتين تتلاءمان مع طقمه الأسود والرمادي.. أمـا نـورا فكان نصيبها ثوبا صوفيا رائعا، وحتى فريدة كان لها جاكيت صوفي أنيق وعقد يـتلاءم معه.

نامت أسماء معي تلك الليلة، وكريم ووسيم في غرفة عبد الرحمن.. قالت أسماء:

-سيترك وسيم وحشة في قلبي أنا وكريم، ولكنني اقتنعت بوجهة نظر عبد الرحمن.

-أنت حامل .ولن تجدي مع الأيام وقتا كافيا لنفسك ولطفلـك ولعملـك..وبالنـسبة للدراسة أفضل لأبنائنا أن يدرسوا في الخارج، وينالوا من العلم ما نفتقده..

-تعرفين!انني أفكر بالعودة الى بوسطن، فلماذا يحرم طفلي من جنسية والده؟ لـيس في لبنان استقرار كاف ليبني الإنسان فيه أي مشروع للمستقبل.. ودخل الفرد فيه لا يتلاء م مع نفقاته.. لايمكن لكريم أن يبني مستشفى خاصابه كما كان يأمل فـي هـذا الغـلاء الفاحش لأثمان الأبنية والبيوت.. انها تفوق مثيلتها في الولايات المتحدة!..

ودعنا أحبتنافي المطار وعدنا، وزرفت نورا كثيرا من الدموعلفراق جهاد ووسيم.. سألتها:

-أتحبين أن أوصلك الى المدرسة ؟

-لا، أريد أن أرتاح، لم أنم جيدا طوال الليل..

عدنا الى البيت، ولما فتحت الباب، كانت فريدة وراءه لتقول لي-ليديا هنا تنتظرك..

طلبت من نوراأن تذهب الى فراشهاوتنام.. وتوجهت الى غرفة الإستقبال..

-أيكون وسيم عندك ولا تخبريني كي أراه؟ كانت لهجتها في غاية الإستياء!

-ياليديا، أعرف شعورك لأنني أم، ولكنني أفكر بوسيم بعقلي.. انه صبي حـساس وليس سهلا عليه أن يبدل أمه وأباه بين ليلة وضحاها..

-كنت أنوي السفر الى باريس لأراه، فما وجدت مكانا شـاغرا لـي .. وجلـست أدردش مع الموظفة علّ أحدهم يتأخر فأنزل في قائمة الإحتياط، وفجأة شاهدت في السجل اسم عبد الرحمن وعرفت أنه يصطحب معه جهاد ووسيم..

-أترين؟ ان عبد الرحمن رفض أن يفرق بين الصبيين اللذين تربيا معا كتوأم.. حتى والد وسيم ما استطاع أن يسترده ويكسب ثقته..لم يكن يرغب بديلا عن والده الحقيقي عبد الرحمن!

-وأنا؟ وأنا ماذا أفعل بحياتي؟

-انه يحبك.. يذكرك بحب وعرفان بالجميل، ومن الأفضل له أن تكوني صديقة أمه الراحلة التي ربته من أن تكوني أمه الحقيقية التي تخلّت عنـه.. ان كـان بإمكانـك أن تزوريه دون أن تجدي ملاما من زوجك، فزوريه واعطه حنانك.. ضميه الـى صـدرك كابنك دون أن يعرف أنه ابنك الحقيقي، واتركي للزمن أن يحلّ مشكلتك..

تنفست الصعداء بعد رحيل عبد الرحمن، وحمدت الله أن جهاد ووسيم أصبحا خارج البلاد. لم تكن الأمور قد استقرت في لبنان، فلا زال الخط الكيسنجري يعمـل ، وخطـر التقسيم قائم والمقاومة في الجنوب مستمرة بالرغم أن المقاومة انتقلت مـن الفلـسطينيين الذين جردوا من سلاحهم الى جماعة حزب الله، ولا يزال الفـرز الطـائفي والمـذهبي واقعا..

كنت آمل حينذاك أن ينتصر خط وطني لبناني يستقطب جميع الفئات المتناحرة فيما بينها لمصلحة لبنان حر ديموقراطي لاتسيطر عليه سوى ارادته الحرة، لا ماتمليه عليـه أرادات خارجية لمصلحتها، وكان كريم يرد علي بقوله:

-أفضل شيء نفعله أن نهاجر.. ما عاد لنا قوة تذكرنضعها في الميـزان، لا أرض ولا ثروة ولا نفوذ، تغيرات كثيرة حدثت في لبنان منذ تركت البلد.. أشعر اليوم بالغربـة فيه لا أعرفه ولا أعرف ناسه، ولو لم أكن قد تعاقدت مع المشفى هنا لكنت عدت أدراجي منذ وطئت قدمي البلد..

عرفت أن أسماء هي وراء دفعه الى العودة الى أميركا فقلت مداعبة:

-ألا يكفيك أنك في هذا البلد عرفت أسماء.. أين كنت ستحظى بمثلها في نيويورك، وترضى بك على علاّتك؟

-ولكن يا نبيلة تخصصت في مهنة لا أجدلها سوقا في لبنان، إلاّ رسـائل اسـتفهام ومقابلة على التلفزيون..

-ماذا تسأل؟

-مثلا، ألا يتعارض هذا مع الدين؟ وهل تستطيع امرأة أن تحمل طفل سواها؟ ومـا هي الروادع القانونية لو أرادت الإحتفاظ به لنفسها؟ وهل يعتبر زنـى أن تلقـح امـرأة زوجها عقيم بمني رجل آخر؟ والى ذلك من أسئلة، ولكن لم تأت الي واحدة من النـساء لإجراء مثل هذه العملية.. علّقت أسماء:

-على كل حال، نحن لا نستطيع المغادرة قبل انتهاء العقد وهو سنتان.. ولكن مـن المؤكد أن فرص النجاح متاحة لكريم ولي في أميركا أكثر منها في لبنان.. وهي أنـسب من وجهة انسانية، فكريم يكون قريبا من والديه، ويستطيع أن يسترد وسيم فيتربى في جو عائلي معي ومع كريم ومع من سأنجبه في المستقبل..عرفت من الفحـص الطبـي فـي المشفى عندنا أنه سيكون ذكرا، وهكذا يصبح لكريم أربعة أبناء خارج البلاد ينتمون الـى بلد متحضر ثقافيا واجتماعيا يستطيع أن يطور امكانيات كلّ فرد فينا..

* * *